الحركات السياسية ذات الطابع الصوفي في العصر الحديث

(السنوسية والمهدية)

أ . م . د . محمد فاضل عباس الباحثة: حنين سمير محمد

كلية الآداب- جامعة بغداد

الكلمات المفتاحية: الحركات السياسية، الطريقة السنوسية، الطريقة المهدية.

الملخص:

لقد كانت للحركات السياسية في العصر الحديث ذات الطابع الصوفي دور في المجتمع في نشر افكار ضمن إطاره الفكري والاجتماعي واستطاعت الطرق الصوفية في أن تساهم في إعطاء صورة عن التصوف في أنه ليس عزلة عن الناس بل اتخذ من التصوف صورة الدعوة بجمع الناس واصبح ميداناً لنشر القيم الدينة والإنسانية والأخلاقية وذلك ضمن اطارها السياسي.

المقدمة:

أن الطرق الصوفية لها دور كبير في العصر الحديث وذلك من خلال تدخلاتها السياسية في المجتمع، فكانت ابرز الطرق في العصر الحديث التي كانت لها اهداف سياسية حركتان هما الحركة السنوسية والحركة المهدية فقد اتخذتاه من التصوف منهجا لهما في تعاملها مع المجتمع.

وبخصوص المنهج المستخدم في البحث فهو المنهج التاريخي، فقد كان لابد استنتاج خلاصات افكار اصحاب الطرق الصوفية.

أما إشكاليات البحث فيمكن طرح الإشكالية كالاتي: ما التصوف عند كل من الطريقة السنوسية والمهدية؟ لقد حاولنا الإجابة عن هذه الإشكالية، من خلال طرح أبرز التساؤلات وهي: كيف وظف الطرق الصوفية التصوف سياسياً؟ وما هي العوامل المؤثرة فيهم؟ ما طبيعة الصعوبات التي واجهتهم في تحقيق اهدافهم السياسية؟

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون في مبحثين، تتقدمها مقدمة، وتتبعها خاتمة بأهم النتائج، ومن ثم أهم روافد البحث التي رفدت مصادرة ومراجعه. فدرسنا في المبحث الأول (الحركة السنوسية)، أما المبحث الثاني فقد عرض (الحركة المهدية).

الحركات السياسية ذات الطابع الصوفي في العصر الحديث

نجد بواكير للتصوف في الفكر العربي الحديث عند بعض الحركات التي امتازت جزء منها بالطابع السياسي ومنها:(السنوسية والمهدية).

المبحث الأول: الحركة السنوسية (توظيف التصوف سياساً)

قامت الحركة السنوسية، في الربع الثاني من القرن التاسع عشر على يد مؤسسها محمد بن علي السنوسي الذي عاش خطر الاوربيين وواقع المسلمين المؤلم فاندفع يحاول الاصلاح، واستمرت الحركة حتى بعد وفاته وترأسها من بعده ابنه المهدي الذي توفي عام 1902م، بعدها ترأسها احمد الشريف ادريس، فكانت مرحلة النشوء في حياة ابن السنوسي وقد بلغت في عهد المهدي ذروة انتشارها ونموها.(ينظر: الدجاني، 1967، ص30، 31).

أما اسباب قيام الحركات الاصلاح الديني فهناك ثلاثة عوامل عامة كانت السبب في نشوء هذه الحركات منذ النصف الثاني للقرن الثامن عشر، وهى: احساس أفراد من النخبة بتردي الأوضاع في العالم الإسلامي أولاً، واحتلال الغرب لأجزاء من العالم العربي ثانياً، والاتصال بالغرب الذي عمل على المساعدة في كشف حقيقة التخلف وظهورها أمام العالم الاسلامي ثالثاً، وبهذا تصنف الحركات إلى: الحركات التي قامت بها السلطة للإصلاح والحركات التي عمل بها رجال مصلحون من العامة.(ينظر: الدجاني، 1967، ص 28).

فما هي العوامل التي أثرت في محمد ابن علي السنوسي ودفعته إلى القيام بحركته؟ تأثر السنوسي بأوضاع العالم الإسلامي فشعر بضعف المسلمين بجوانب الحياة الاقتصادية والدينية والأخلاقية والاجتماعية، كذلك بضعف السلطة التي مثلتها الخلافة العثمانية، كذلك شعر بضغط العالم المسيحي على المسلمين لاستغلاله اقتصاديا وممارسة الحروب الصليبية في صور أخرى، فضلاً عن أوضاع بلده الجزائر وطريقة حكم الترك فيها وتألمه بتثاقل المسلمين عن عمل واجبهم في الدعوة الى الله كما تأثر من وصول أخبار التقدم المسيحي في أفريقيا الوثنية، ومع سياحته ازدادت هذه المؤثرات اذا تعرف على ضعف السلطة العلوية في المغرب وعلى وحدانية محمد علي في اداره مصر وعلى عجز الدولة العثمانية الواضح في مختلف اجزائها وعلى اعتلال الحكم في الحجاز، كما أثرت به احتلال الفرنسيين لبلده واطلع في رحلاته على جشع الاوربيين في وطنه الإسلامي، فشعر بمسؤولية كونه عاش في جو صوفي.(ينظر: الدجاني، 1967، ص 161، 162).

فأسس في مكة على جبل أبي قبيس الزاوية الاولى عام 1837، ونتيجة لجهوده الكبيرة لاقت حركته رواجاً بين اهل الحجاز، وعلى هذا الاساس عمل على دعوة القبائل في برقة ونشر لهم حركته التي تعمل بالقران الكريم والسنة المحمدية وعدم القبول والاكتفاء بالأذكار الاوراد والاعتماد فقط على مجرد الذكر والتلاوة دون العمل ومراعاة أحكام الشريعة الاسلامية في الأعمال العامة وكما في عهد الرسول (ص) والخلفاء الراشدين من بعده، إذ اعتقد السنوسي أن المشاكل عبر بها الواقع الإسلامي سببها عدم العودة إلى الدين الصحيح إن خلاصة ما يريده السنوسي هو جعل الحكم في البلاد الاسلامية على بناء إسلامي صحيح يقوم به امام عادل يجمع بين الزعامة الدينية والزعامة السياسية جمعاً فعلياً.(ينظر: بعيو، بلا سنة، ص 27، 36) .

بعد ان سلك السنوسي طريقا منظماً علمياً وبعد ان درس عوامل تأخر المسلمين عمل على وضع منهاج لمعالجة هذا التأخر، لقد عمل على اصلاح التناقض الذي احاط بالمجتمع الإسلامي بنشر التعليم وبذلك نبذ الاوهام والبدع التي احاطت بالعقيدة الصافية والتي كانت سبب تراجع المسلمين، كما اراد أن يوجد دعاة ومؤيدين له تتوفر فيهم روح الفداء في سبيل نشر الاسلام. ووجد السنوسي ان الوسائل التي تتبعها الصوفية وسائل قادرة على اتمام هذه الاهداف، مع ذلك ابتعد السنوسي عن ما في بعض الطرق الصوفية من اشكال ومظاهر لا تتبع هدفها الاصلي، وكذلك اعرض السنوسي عن القول بأن الإسلام ليس من شأنه الدنيا وهذا موجود في مفهوم الصوفية التقليدي، وأعاد السنوسي التصوف إلى معينه الإساسي وهو تزكية وتربية النفس، والابتعاد عن الكلام في كرامات الأولياء، وقامت طريقته على الأخوة والتماسك والتعاون التي تقوم بها الطرق الأخرى للدعاء والذكر، وتوجهها وقامت السنوسية على استقبال الوافدين واطعام الفقراء، وبهذا عمل السنوسي على إنشاء الزوايا وجعلها مراكز للتعليم، وموطنا لاعداد مرشدين ودعاة، وكان هدفة ان تمضي هذه الزوايا لتنتشر في العالم الاسلامي كله.(ينظر: يوسف، 2000، ص62، 63)

أما الزاوية السنوسية هي مؤسسة الحكومة ومركز الدولة والطريقة ومثال المجتمع الجديد، فتشمل على المسجد ومنزلا لقائدها وكذلك الوكيل وللشيخ وفيها بيوت لعابري السبيل الضيوف وللفقراء الذين لا مسكن لهم، وفيها مساكن للخدم، ومخازن للمؤن واصطبل...الخ تلك هي الزاوية السنوسية فهي اداة التنمية المتميزة والتي جعل منها الخطر الاستعماري قلعة للدفاع عن الإسلام والعروبة والجهاد في سبيل الله. (ينظر: عمادة،1410هـ-1990م، ص173).

اما تعامل السنوسية مع المسلمين فلم تستخدم أسلوب العنف بل جعلته على اعدائهم وكان لهذا أثره البعيد المدى في مواجهة سيطرة الاحتلال الفرنسي للسودان والصحراء الكبرى، ومقاومة الغزو الفرنسي لتونس والايطالي لليبيا، فاخرت تقدم الاستعمار الاوربي، فكانت الزوايا تجسيدا عمليا للفكرة التي تقوم عليها الحركة السنوسية وكانت ايضا تعبيرا عن موقفها من اشاعة قيمة العمل الجماعي باعتباره خطوة للعمران والتقدم ورعاية الإنسان الجديد المتطهر الواعي من الخرافات والاخطاء.(ينظر: يوسف، 2000، ص64، 70).

أما البعد السياسي عند ابن السنوسي يظهر في تعامله الحكيم مع الدولة العثمانية، وقد اختار ابن السنوسي منهج الإرشاد والتعليم للإصلاح وتقويم المجتمع ولذلك كانت خطواته الدعوية والحركية محسوبة، فلم يصطدم بالعلماء ولا بالدولة، ولا غيرهم وانما عمل لتحقيق اهدافه بالوسائل السلمية.(ينظر: الصلابي، 2009، ص 116) كذلك "إن البعد السياسي عند ابن السنوسي، يتضح للباحث في حملة التوعية التي قام بها ضد الغزو القادم للأمة من قبل الأوربيين، وتنظيمه للزوايا، وتعبئة الأنصار، بغرس الثقة في دينهم وعقيدتهم، والثقة بقيادتهم، وتأخير الصدام مع الأوربيين حتى يكتمل البناء".(الصلابي، 2009، ص 118)

فالسنوسية حركة فكرية وتعليمة وسياسية عملت على تعليم ووضع مبادئ نظرية وحركة روحية صوفية لتنقية النفس وحركة اجتماعية عملت بواسطة الزوايا تقوم على نشأة مجتمع انساني جديد فضلاً عن هي حركة سياسية تحمي رعاياها.

المبحث الثاني: الحركة المهدية

وهذه حركة وطنية مناضلة إسلامية ظهرت في السودان وكان زمانها هو(النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي) حيث لعبت دورا متميزا في توحيد السودان لأول مرة وتلاحم شعبه في وحدة تتحد وتقاوم النفوذ الأجنبي، هذه الحركة المهدية التي تنتسب إلى محمد أحمد (ينظر: يوسف،2000، ص 77).

بدأها المهدي بالقول بأنه المهدي المنتظر فقد تأمل محمد أحمد كثيرا ما يعانيه السودان من فساد وظلم واضطراب وانقطع فترة للتأمل والعبادة والصلاة ثم ظهر للناس ليعلن مخترعا بذلك أو مؤمنا انه المهدي المنتظر "واعلن المهدي كذلك أن المهدية ليس مما يسعى المرء إليه فهو قد كان سائراً في طريق الإصلاح على العادة حتى هجمت عليه المهدية من رسول الله بحضرة الأولياء الصالحين يقظة في حال الصحة، في وقت لم يكن يطمح أن ينالها".(يوسف، 2000، ص 80)

وسواء أكان محمد أحمد قد استدل على أن تحقيق اهدافه وغاياته لابد من شحنة روحية وطاقة عاطفية تؤثر في قلوب المؤمنين وتبعدهم عن القيود والروابط التي تعلقهم

وتشدهم إلى الدنيا ومتاعبها فبهذا يسرعون إلى الدخول والانخراط في حركته الإصلاحية، فابتدع انه هو(المهدي) المنتظر، أو إن الرجل قد امتزجت في قلبه وعقله ونفسه ألم شعبه وكذلك علاقته بالصوفية التي خلقت لنفسه نقاء وشفافية وزادت منها رياضاته فأخرجت فيه كانسان طاقات غير منظورة ولا عادية، فرأى ما لا يقدر أن يراه الآخرون، رأى رسول الله (ص) يعهد إليه ويكلفه بالمهدية وبالجهاد، وبغض النظر أن كان التفسير الأول أو التفسير الثاني هو الصحيح، فلقد اعلن محمد أحمد في (الأول من شعبان 1298هـ- 1881م) انه هو المهدي ودعا الناس إلى الايمان به، والجهاد معه لإقامة الدين والهجرة إلية.(ينظر: عمارة، 1418هـ - 1997م، ص 274).

فمن أين حصل محمد احمد على مهديته؟ لقد تربى مهدي السودان محمد أحمد صوفياً، وهو لم يكن شخصاً عادياً في صوفيته فهو كان شيخ طريقه وكانت الصوفية عالماً مليئاً بالكرامات والخوارق، وهى خوارق وكرامات ولا يعرفها إلا أهل المقامات والكشف(ينظر: شلبي، بلا سنة، ص 138، 139).

"لقد حصل محمد أحمد إذاً على مهديته عن طريق التصوف، وكان لابن عربي وكتبه تأثير شديد في اتخاذه هذا الموقف. فالتصوف هو الذي فتح له الطريق، ومنحه إلى المهدية جواز المرور، وقدم له في ذلك الأدلة والأسانيد. كان التصوف في السودان هو شعار غالبية الناس في هذه الفترة، وكان شيوخه هم المرجع الوحيد في شئون العقيدة، وكانت مفاهيمه وتصوراته هى السند الصحيح في كل قضية...وقد لعبت كل هذه العوامل دورها في إعلان مهدية محمد أحمد"(شلبي، بلا سنة، ص 157).

اما اسباب قيام الحركة المهدية فقد اكثر المؤرخون في الحديث عن اسباب قيام ثورة المهدي وذهبوا فيها مذاهب مختلفة ومنها "الانتقام من فظائع الترك، وفداحة الضرائب والأسلوب الذى اتبع في جمعها ومنع تجارة الرقيق وسوء الإدارة، استخفاف الحكومة بمحمد احمد في أول أمره وانشغال الحكومة المصرية بثورة عرابى وضعف الحاميات العسكرية وسياسة التردد ازاء الصورة، ويضيف بعضهم إلى ماسبق التدهور الخلقي وينقلون بالذات القصة التى تذهب إلى أن رجلاً قد زف إلى رجل في مدينة الأبيض وكيف أن المهدي ثار عندما وقف على هذا الحادث". (أبو سليم، 1989، ص 25) وكذلك من أسبابها تعود إلى امتداد الفتوحات بحيث أصبحت أكثر من الطاقة الإدارية المتوفرة وإلى طريقة اختيار الموظفين ونظرة هؤلاء إلى الخدم في السودان وتكالب الدولة على استغلال موارد البلاد. اما د.هولت فقد ذهب إلى أن أسباب الثورة ترجع إلى تقلص سلطة الخديوية وتضعضع مركزها.(ينظر: أبو سليم، محمد ابراهيم: الحركة الفكرية في المهدية، ص 26.) كذلك "الضرائب غير العادلة التي لم

يعتد عليها السودانيون– وكانت هذه الضرائب مما كان يجنى بالقوة وبصورة مبالغة فيها بحسب أهواء القائمين بتحصيلها على مختلف المستويات...ومحاولة الحكومة القضاء على تجارة الرقيق".(ب.م.هولت، بلا سنة، ص 34).

اما افكاره الأصلاحية فجاءت مزيجاً من الصوفية والسلفية، كما اتخذ من الصوفية اطارا لحركته لتهذيب النفوس وتصفيتها وتدريبها على التقشف والزهد واتخذ من الاسطورة التي بلورها الصوفي ابن عربي عن المهدي المنتظر وسيله لاستنهاض الأمة وصهر وحدتها وتفجير ما بها من طاقات وحيوية. التزم المهدي فكرا اجتماعيا متقدما فقد راعته حالة الفقراء والحرمان التي تعانيها الأغلبية الساحقة من الشعب كما أن من انحاز إليه كانوا من الفقراء الذين سلموا إليه أنفسهم وما يملكون بينما أعداء المهدية كانوا من اصحاب الثروات والوظائف وكانوا يعيبون عليه أن أنصاره من الفقراء وكان هو يفخر بذلك.(ينظر: يوسف، 2000، ص 83، 84).

"وعندما كان خصوم (المهدية) يعيبون عليها فقر أتباعها في المال والتعليم، كان (المهدي) يفاخر ويفخر على هؤلاء الخصوم بهذا الفقر فيراه شرفا يسلكه هو وأتباعه في سلك السلف الصالح...وانطلاقا من هذا الفكر الإسلامي المنحاز إلى الجماعية، واستجابة لضرورات المجتمع السودانى وطابعه، أقام (المهدي) التجربة الاجتماعية المتميزة عن التطبيقات العثمانية والمملوكية، وعن تطبيقات الحضارة الأوربية في الأموال والاقتصاد، ففى البيعة له (بالمهدية)، كان المبايعون يعطونه أنفسهم وأموالهم، وهو هنا الرمز والتجسيد للجماعة والدولة وفي الأراض الزراعية، وقف بالملكية عند الحد الذي يستطيع الإنسان المالك ان يزرعه، وما زاد على ذلك يعطيه لأخيه المؤمن المحتاج أما الدكاكين، والوكالات التجارية، والقيصريات، والمعاصر والطواحين، وموانىء السفن والحدائق...الخ...الخ فلقد اعتبرت، كالفي مصالح عامة، فهي للمجاهدين والمساكين".(عمارة، 1410هـ-1990، ص 181، 182).

الخاتمة:

مثل التصوف جانب مهم بأخذه مساحة واسعة من الوجود الاجتماعي والسياسي وذلك من خلال الطرق الصوفية، و أن اهم ما توصلت اليه من النقاط الاساسية في البحث.

1- من أسباب قيام الحركات الاصلاحية عوامل ثلاثة منها احساس الافراد يتردى الاوضاع والاحتلال الغربي وكشف حقيقة التخلف في العالم الإسلامي.

2- ما يريده السنوسي هو جعل الحكم في البلاد الإسلامي يقوم على أساس الزعامة الدينية والسياسية على أساس بناء إسلامي صحيح.

3- عمل السنوسي على الإصلاح المجتمع من خلال نشر التعليم ونبذ الاوهام والبدع من خلال تزكيته النفس والتربية والابتعاد عن كلام عن كرامات الاولياء والبدع والتركيز على التعليم ولم يستخدم السنوسي اسلوب العنف في تعامله.

4- للزوايا أهمية من خلال اعتبارها اشاعة القيم في العمل الجماعي.

5- استمد محمد أحمد مهديته من خلال الأوضاع المحيطة به فقد كان للتصوف اهمية كبيرة في عصره، وفي تأثر محمد احمد في كتب ابن عربي.

6- يجمع محمد احمد في افكاره الاصلاحية بين الصوفية والسلفية.

المصادر والمراجع:

1- أبو سليم، محمد ابراهيم: الحركة الفكرية في المهدية، دار جامعة الخرطوم للنشر، السودان، ط3، 1989.

2- ب.م. هولت: المهدية في السودان، ترجمة جميل عبيد، مراجعة احمد عبد الرحيم مصطفى، دار الفكر العربي، بلا سنة.

3- بعيو، مصطفى عبد الله: دراسات في التاريخ اللوبي (الأسس التاريخية لمستقبل لوبيا)، مطبعة عابدين، اسكندرية، بلا سنة.

4- الدجاني، احمد صدقي: الحركة السنوسية (نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر)، دار لبنان، بيروت، ط1، 1967.

5- شكري، محمد فؤاد: السنوسية دين ودولة، دار الفكر العربي، مصر، 1938م.

6- شلبي، عبد الودود: الأصول الفكرية لحركة المهدي السوداني ودعوته، مكتبة الآداب، القاهرة، بلا سنة.

7- الصلابي، علي محمد: تاريخ الحركة السنوسية في أفريقيا، دار المعرفة، بيروت، ط1430،3هـ- 2009.

8- عمادة، محمد: الطريق إلى اليقظة الاسلامية، دار الشروق، القاهرة، بيروت، ط1، 1410هـ- 1990م.

9- عمارة، محمد: تيارات الفكر الإسلامي، طبعة الشروق، مصر، ط2، 1418هـ - 1997م.

10- يوسف، السيد: فجر الحركة الاسلامية المعاصرة (الوهابية–السنوسية– المهدية ومصر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر)، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2000.

Political movements of a Sufi character in the modern era (Senussi and Mahdism)

Assist Prof Dr. Muhammad Fadel Abbas **Haneen Samir Muhammad**
College of Arts - University of Baghdad

Keywords: political movements, the Senussi way, the Mahdist way.

Summary:

The political movements in the modern era of a Sufi character had a role in society in spreading ideas within its intellectual and social framework, and the Sufi orders were able to contribute to giving an image of Sufism in that it is not isolation from people, but rather Sufism took the form of calling people together and became a field for spreading religious values Humanity and morality within its political.